المستوى: السنة الأولى ماستر – تخصص: فلسفة تطبيقية
المقياس: نظرية الدولة و النظم السياسية
النشاط: محاضرة

المحاضرة السادسة: الفكر السياسي الإسلامي و نظرية الدولة (الفارابي و بن خلدون أنموذجا)

مقدمة

لقد جاء الإسلام كعقيدة جديدة تدعو إلى التوحيد في الألوهية و عدم الشرك بالله، و هو ما لم يكن سائدا في المجتمع العربي آنذاك على مستوى العقيدة، بل كان مجتمعا وثنيا، و على المستوى الاجتماعي كان يعيش في شكل قبائل موزعة في بادية شبه الجزيرة العربية، كما كان لكل قبيلة نمطها في تسيير شؤونها الداخلية و الخارجية، و معتقداتها الدينية، و عاداتها و تقاليدها. و لما ظهر الإسلام على يد النبي محمد بن عبد الله (صلى الله عليه و سلم)، و هو من عائلة كانت من أشراف قبيلة قريش، بدأ ينشر عقيدة التوحيد، و يدعو إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، و أنه لم يكن سوى رسولا ينقل رسالة الله عز و جل إلى كافة البشرية، و عبده المطيع لكل ما نهى عنه أو أمر به، فقد توصل إلى أن يقنع الكثير من الناس خاصة هؤلاء الذين كانوا مضطهدون و محتقرون من طرف الطبقات الغنية و ذوي السلطة في المجتمع، كالعبيد و الفقراء و النساء، و غيرهم من المستضعفين، و تواصلت هذه الدعوة الإسلامية حتى اعتنقها أكبر عدد من سكان شبه الجزيرة العربية، و حتى الأشراف منهم، و قد لقي الرسول صلى الله عليه و سلم و من صدق رسالته كثير من المتاعب و الاضطهاد، و لكنه تمكن بفضل قدرة الله تعالى من نشر الإسلام سواء في شبه الجزيرة العربية، أو خارجها شرقا و غربا، و كانت بداية الأمر أن وحد قبائل العرب في مجتمع واحد و موحد تحت كلمة الإسلام، فلم يجد الرسول (ص) نفسه إلا أن يقوم بتسيير هذا المجتمع في كل شؤونه، و تنظيمه وفق ما جاء به الإسلام من تعاليم أخلاقية في صيغة أوامر و نواهي، ثم قال الرسول (ص) أنه لم يبعث سوى لكي يتمم مكارم الأخلاق، و هذا يعني من جهة أن المجتمع العربي باختلاف قبائله كانت له مكارم الأخلاق، و ليس مجتمعا لا يعرف سوى الفساد، و أن مهمة الرسول (ص) بهذه الرسالة الدينية، أن يقضي على ذلك الفساد و يعزز مكارم الأخلاق التي كانت لديهم. لكن هذه الحالة تستوقفنا عند تساؤل: إذا كانت رسالة الإسلام التي أتى بها الرسول(ص) ذات طبيعة دينية و أخلاقية، فكيف تشكل لدى المسلمين فكرا سياسيا إسلاميا؟، و كيف وضع المفكرون و الفلاسفة المسلمون نظرية للدولة؟ ثم ما الدافع إلى التفكير في هذا المشروع الفكري السياسي إذا كان القرآن و السنة النبوية كافيان لتنظيم المجتمع الإسلامي، و تسيير شؤونه؟.

هذا التساؤل يجعلنا نبحث في أصول الفكر السياسي الإسلامي، و أهم الفلاسفة السياسيين المسلمين الذين أهتموا بوضع نظرية للدولة.

يقسم الدارسون للفكر الإسلامي مراحل نشوء الفكر السياسي الإسلامي إلى عصرين: عصر ما قبل التدوين و عصر التدوين.

- **الفكر السياسي الإسلامي قبل عصر التدوين (11 هـ - 132 هـ)**

تعتبر مرحلة ما قبل التدوين من عمر الدولة الإسلامية مرحلة غامضة من ناحية الفكر السياسي، لدى الباحثين و المهتمين بهذا المجال، و هذا راجع حسب البعض إلى ندرة النصوص السياسية التي تنتمي إلى هذه المرحلة، و ضيق التواصل الكتابي، و ضعف المصادر الأولى، أو ضعف محتوياتها.

تمتد هذه المرحلة من وفاة **الرسول** (ص الله عليه و سلم) عام 11هـ إلى مقتل آخر خلفاء الدولة الأموية، و هو " **مروان بن محمد** " عام 132هـ ، و بداية الخلافة العباسية مع أول خلفائها " **أبو العباس**"، و تتميز هذه المرحلة عن المراحل التي أتت بعدها، خاصة مرحلة عصر التدوين[1]، خلوها تقريبا من مصنفات تتناول القضايا الكلية للدولة و السلطة في إطارها الإسلامي، بأسلوب موضوعي، غير أنها اتسمت في الوقت نفسه بازدهار ألوان أخرى من الفكر السياسي.

و قد تميزت الفترة التي سبقت عصر ما قبل التدوين باهتمام الرسول(ص) بتسيير المجتمع الإسلامي بالاعتماد على القرآن الكريم و السنة النبوية، و لم يكن هناك فكرا سياسيا نظريا قائما بذاته يستند إليه، سوى الاجتهاد وفق ما جاء في النص القرآني من تعاليم أخلاقية، لأن الرسول (ص) نهى أولا المسلمين عن تدوين أي شيء من الحديث سوى الاهتمام بالقرآن الكريم و حفظه عن ظهر قلب، خوفا من اختلاطه بالحديث أو اتجاه المسلمين إلى الاهتمام بالحديث على حساب القرآن. ثم ان الرسول (ص) اهتم بإتمام مكارم الأخلاق و توطيد دعائم العقيدة الإسلامية في المجتمع الإسلامي أكثر من شيء آخر، و قد جاء في حديث أبي هريرة عن الرسول (ص) أنه قال " أنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "[2] لأن في نظره لا يستقيم المجتمع و لا يتطور إلا إذا تحلى أفراده بمكارم الأخلاق، و لهذا لم يرتقي المجتمع الإسلامي إلى مستوى الدولة بالمعنى السياسي الحديث، بل كان مجتمعا دينيا أخلاقيا، و هذا يعني أن تنظيم المجتمع و تسيير شؤونه كان على أساس ديني و أخلاقي، وفق ما جاء في القرآن الكريم من أوامر و نواهي، و فسرتها السنة النبوية الشريفة، و الحديث الشريف. و لكن لما توطد الإسلام و دخلت فيه أمم عجمية من عادات و تقاليد و ثقافات مختلفة، أصبح من الضروري توسيع دائرة تلك التعاليم الدينية و الأخلاقية، من البحث في الكليات إلى الاهتمام بالجزئيات، و من هنا كان واجبا أن يبرز الفقه الإسلامي للبحث في النصوص الشرعية، و استنباط الأحكام المتعلقة بالمسائل المطروحة خاصة ما تعلق بالجانب السياسي.

لقد ارتقى المجتمع الإسلامي إلى مرتبة الدولة، حيث لم يفصل الإسلام بين الجانب الديني الأخلاقي و بين الجانب السياسي، إذا يظهر ذلك في تطبيق مبدأ المبايعة في خلافة الرسول (ص) في الحكم بعد وفاته، و هو مبدأ قائم على الرضى الذي هو في أصله مبدأ أخلاقيا، و كذلك تطبيق مبدأ الشورى، و هو ايضا مبدأ أخلاقي من تعاليم الإسلام. و قد حدد الإسلام شرعية الحكم في بعض الأسس الضرورية و هي:

- أن يكون الحكم بما أنزل الله في القرآن الكريم و ما جاء في سنة رسول الله (ص)، قال الله عز و جل " و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون (سورة المائدة آ: 44)

---

[1]- يطلق عصر التدوين على الفترة التي شهدت فيها تدوين معظم العلوم و المعارف التي تناولت الثقافة الإسلامية، بما فيها الفكر السياسي، و قد جعل معظم الباحثين سنة 143 هـ بداية هذا العصر، و يعتمد أغلبهم في ذلك على ما قاله الحافظ الذهبي الذي نقله السيوطي في كتابه **تاريخ الخلفاء** حيث جاء فيه " في سنة 143هـ شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث و الفقه و التفسير ...الخ، و قبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف غير مرتبة ". غير أن التدوين في السياسة يمكن أيضا رده إلى تاريخ متقدم بعض الشيء يوافق بداية حكم العباسيين، و تعزيز الصلة الثقافية مع فارس من خلال الترجمة و الحضور القوي الموالي في أجهزة الدولة، و هو التاريخ الذي ظهرت فيه نصوص ابن المقفع و غيره أي ما بعد 132هـ (السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، بيروت، دار ابن حزم، ط 1، 2003، ص 208. و كذلك ، محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط4 ، 1991، ص ص 62 - 64.)

[2]- رواه الإمام أحمد، و الألباني في **صحيحه الجامع الصغير و زياداته**

- أن يكون الحكم مؤسسا على الشورى. قال الله عز و جل" و أمرهم شورى بينهم " (سورة الشورى آ: 37)

- أن يكون الحكم قائم على الرضى بين الحاكم و المحكوم. قال الله عز و جل " أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم " (سورة النساء آ: 59)

و على هذا الأساس شهد الكيان السياسي الإسلامي خلال هذه الفترة عدة تطورات نوعية من الجانب التاريخي و السياسي اختصرت في ثلاثة أطوار رئيسية:

ـ الطور الأول هو طور الخلافة الراشدة التي امتدت من بيعة " **أبي بكر الصديق** " في سقيفة بني الساعدة، إلى الثورة على "عثمان بن عفان " و اغتياله عام 35هـ.

ـ الطور الثاني هو طور الفتنة و امتد من اغتيال الخليفة " **عثمان بن عفان** " إلى عام الجماعة أي عام تنازل "**الحسن بن على بن أبي طالب**" عن الخلافة "**لمعاوية بن سفيان**"

ـ الطور الثالث بدأ من بيعة **معاوية بن أبي سفيان** و انتهى بتولي **أبي العباس السفاح** الخلافة عام 132 هـ

.

ـ الطور الأول :

بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه و سلم) عام 11هـ سعى المسلمون إلى بناء الكيان السياسي للدولة الإسلامية و كان ذلك بداية عصر الخلفاء الراشدين، و لم يكن للمسلمين أية خبرة في الممارسة السياسية، غير أنهم اعتمدوا في ذلك على تجربة الرسول (ص)، و القيم الأخلاقية المستنبطة من تعاليم الشريعة الإسلامية، و من ثم استطاع الحكام المسلمون الذين خلفوا الرسول(ص) خلال هذه الفترة من إرساء قواعد التنظيم السياسي في تنظيم الدولة و هياكلها من الولاة و الجيش و القضاء.

و خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخ الدولة الإسلامية أثيرت مجموعة من القضايا السياسية كانت محل متابعة من طرف عامة المسلمين في مكة المكرمة، و المدينة المنورة، و بقية الأمصار الداخلة، لاسيما قضية الاستحلاف و ضوابطها و أسسها، و هي قضية أثيرت بحدة بعد وفاة الرسول (ص) في السقيفة، و أثيرت أيضا مع الخلفاء الراشدين فيما بعد و بأشكال مختلفة، و من القضايا الأخرى التي استأثرت عامة الناس في فترة الخلفاء الراشدين قضية الردة في عهد **أبي بكر الصديق**، و قسمة الفيء في عهد **عمر بن الخطاب**، و قضية تدبير الثروة و التعامل مع القرابة في **عهد عثمان بن عفان**

ـ الطور الثاني

في هذا الطور تركز اهتمام المسلمين من العامة و الخاصة على الاتهامات الموجهة **لعثمان بن عفان**، المتعلقة بإيثاره لقرابته و سوء تصرفه في المال العام، الشيء الذي أشعل الثورة التي انتهت باغتياله. لكن غياب **عثمان بن عفان** عن المشهد لم يحل المشكلة، بل أدى ذلك إلى سلسلة من المشاكل السياسية و الأمنية الأخرى، التي ستنهك جهود الجماعة و طاقتها، و قد تمثلت هذه المشاكل في **معركة جمل** و **معركة صفين**، و انقسام الجماعة عن الخليفة **علي بن أبي طالب**، حيث لم يدخل في طاعته سائر المسلمين، بل عرفت الأمة الإسلامية نوعا من التحزب، و ذلك على خلفية الصراع حول الانتقام لدم **عثمان بن عفان**، و الأحق بالخلافة بعده، إذ انقسمت الجماعة إلى شيعة و سنة و خوارج، و تمايزت لأول مرة الآراء الكلامية و الفقهية حول الإمامة و الخلافة.

ـ الطور الثالث

بدأ بإجماع الكلمة على **معاوية بن أبي سفيان** و بيعته خليفة للمسلمين سنة 41هـ، و قد طرأت خلال ذلك تعديلات جوهرية على نموذج الخلفاء الراشدين، و قد أمست الشوكة عنصرا مهما من عناصر الشرعية

السياسية، فلا شرعية لمن لا شوكة له. كما تحولت الخلافة إلى منصب وراثي بالدرجة الأولى على عهد الخليفة السابق و في بيته.

لقد عرفت الدولة الإسلامية خلال هذه الفترة استقرارا سياسيا و إداريا سمح لها بالتوسع و بسط نفوذها شرقا و غربا، و حققت انتصارات عسكرية مهمة على أكثر من جبهة، غير أن هذا الانتصار لم يكن مطلقا بل كان أكثر من مرة منغصات سياسية كان روادها عدد من فصائل المعارضة السياسية التي تنتمي علي غالبها إلى الشيعة و الخوارج، و كان من أهم التوترات السياسية التي واجهها الأمويون خلال دولتهم، و التي اتخذت شكل التمرد العسكري، و التي كانت تنتهي بهزيمتها، تمرد الخوارج في عهد **معاوية بن أبي سفيان** و **يزيد بن معاوية** و كل من خلفهما، و خروج **الحسين بن على بن أبي طالب** عن خلافة **يزيد بن معاوية**، و مقتله بالعراق سنة 61هـ، و رفض أهل المدينة المنورة بيعة **يزيد بن معاوية**، و هو ما أدى إلى **وقعة الحرة** سنة 63هـ، و اقتحام مكة المكرمة من طرف الجيش الأموي بعد رفض **ابن الزبير** بيعة **يزيد بن معاوية**، و إعلان نفسه خليفة للمسلمين سنة 63 هـ، وكذلك خروج **الضحاك بن قيس** و معه فئة كبيرة من أهل الشام عن الأمويين و بعتهم **ابن الزبير**، بعد وفاة **يزيد بن معاوية** و تولي **مروان بن الحكم** الخلافة سنة 64 هـ، و كذلك خروج **ابن الأشعث** معلنا خلع **الحجاج بن يوسف**، و هو ما يعرف تاريخيا بثورة القراء حيث توجه إلى العراق و واجه **الحجاج** في عقر داره في البصرة سنة 81 هـ.

ـ مظاهر الفكر السياسي الإسلامي في عصر ما قبل التدوين

توزعت جمل الفكر السياسي الإسلامي خلال هذه الفترة بين أصناف مختلفة من الثقافة، أبرزها كتب الأمثال و كتب الآداب و المسامرات و القصص و الخطب و الرسائل، و نصوص المتكلمين و سنن الفقهاء الأوائل و هي:

ـ كتب الأمثال: كانت هذه الكتب تشكل حكمة العرب في الجاهلية و من بعد ذلك في عصر الإسلام، و كانت من أشهر المؤلفات التي ظهرت في هذا العصر و عبرت عن مكنون العرب السياسي كتاب الأمثال **لعبيد بن شرية** و قد عاش في زمن **معاوية بن أبي سفيان**، و أيضا **كتاب الأمثال لصحاري العبيدي** الذي عاصر **معاوية بن أبي سفيان.** فعلى سبيل المثال ذكر **المبرد** في كتابه **الكامل** و **النويري** في كتاب **نهاية العرب في فنون الأدب** طائفة مهمة من الأمثال المنسوبة للخلفاء الراشدين، مثل ذلك قول **أبي بكر الصديق** " ثالث من كن فيه عليه: البغي و النكت، و المكر " و " لا تكتم المستشار خبرا فتؤتي من قبله " و من أمثال **عمر بن الخطاب** قوله " أشقى الولاة من شقيت به رعيته " و من أمثال **عثمان بن عفان** قوله " أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال ".

إن هذه الأمثال تحوي في الحقيقة أبعادا في الحكمة السياسية و العدل و الطاعة و النصرة و فنون التدبير، و أن جزء من الفكر السياسي الإسلامي ارتبط بهذه الأمثال مثل ذاك كتاب عيون الأخبار **لابن قتيبة** الذي نقل في باب السلطان الكثير من الأمثال و الحكم عن المتقدمين من الخلفاء و الصحابة و غيرهم.

ـ كتب الأدب و المسامرات تضمنت هذه الكتب نصوصا سياسية كثيرة في شكل قصص و كانت تتداول شفهيا في أغلب الأحيان، مثال ذلك كتاب **نقائض جرير و الفرزدق** التي جمعها **أبو عبيدة**، و أيضا كتاب **الأغاني لأبي الفرج الإصفهاني**، يحوي عددا كبيرا من القصص عن العرب و أيامهم ناصحة بالحكمة و جميل القول مثل ذلك ما ورد في قصة **داحس و الغبراء.**

ـ الخطب و الرسائل : كانت الخطب و الرسائل إحدى مظاهر الفكر السياسي الإسلامي في هذه المرحلة، و من أبرز ذلك خطب الخلفاء الراشدين أمثال **علي بن أبي طالب** التي جمعها **الشريف الرضى** في كتاب بعنوان **نهج البلاغة** إذ قسمها إلى ثلاثة أبواب كبرى: باب خاص بالخطب و باب خاص بالكتب و الوصايا، و باب خاص

بالحكم، و أن القضية الأساسية التي سيطرت على فكر علي بن أبي طالب قضية الشرعية السياسية، فبعض الخطب عالجت الخلاف الذي نشب بين المسلمين بعد اغتيال **عثمان بن عفان**، و الذي بلغ ذروته في معركة جمل، و بعضها الآخر عالج صراعه مع معاوية بن سفيان، و البعض الآخر رد فيه على الخوارج. قال **علي بن أبي طالب** لما أراده الناس على البيعة بعد مقتل عثمان بن عفان " دعوني و التمسوا غيري فإنا مستقبلون أمرا له وجوها و ألوانا، لا تقوم له القلوب و لا تثبت عليه العقول، و إن الأفاق قد أعامت و المحجة قد تنكرت، و اعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، و لم أصغ إلى قول قائل و عتب العاتب، و إن تركتموني فأنا كأحدكم و لعلي أسمعكم و أطوعكم لمن وليتموه أمركم، و أنا لكم وزيرا خير لكم مني أميرا". و قال في خطبة أخرى " لم تكن بيعتكم إياي فلتة و ليس أمري و أمركم واحد، إني أردتكم الله و أنتم تريدونني لأنفسكم، أيها الناس أعينوني على أنفسكم، و أيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، و لأقودن الظالم بجزامته حتى أورده منهل الحق و أن كان كارها ".